المقالة الثامنة والثلاثون[1]
في سيرة العبادة

أنا مادح أمانتك وحرصك كيف طلبت أن تسمع من إنسان خاطئ قولاً من الأقوال التي توافق موعدك ، ولججت فيه أكثر دفعة وأثنتين وهذه علامة نفس ذات فضيلة أما أنا فقد جعلتني سماجة أفعالي عاجزاً لأن ثقلها لا يحتمل ورغبتك تميلني إلي الطاعة لتسمع قولاً عن مخافة الله لأن الذين يقتنون المناقب الروحية يستلذون بالأقوال التي تبلغهم إلي الفضيلة ، أما الذين ذهنهم مائل إلي السيرة اللحمية فلا يحتملون أن يسمعوا أقوالاً عن الأشياء الروحانية بل يبغضون القائل ويدفعونه ، وإذا تحدثوا عن الآلام واللذات فلا يشبعون بل يختارون أن يعدموا الطعام والنوم أكثر من أن يجعلوا لتلك الدراسة نِهاية وغاية .

فأما أنت فأثبت في المناقب الروحانية ليثبت لك ذكر الله رافضاً الأقوال التي لا تنفع بمقدار ما لا يقاس ، أنه غير ممكن أن تتفق معاً النتانة والطيب ، إن اتفقت في طريق أو في مركب أو في قلاية وإن واكلت شاباً أو شيخاً فلتكن أتعابك بمعرفة وتمييز وإفراز لكي لا تخسر شيئاً من الأشياء التي تعملها .

وأستعمل أغذية ساذجة ذات احتياج لكي لا يغلظ ذهنك بالخمر والسكر والهموم العالمية فإن الذين يسترقهم مثل هذا الألم لا يعتدون التدبير الإلهي تدبيراً ، ولا يحتسبون الزنا فسقاً ، ولا يستعفون من سائر الأفعال المحظورة فلا يفضلون شيئاً عن الخنازير التي تتمرغ في الحمأة لأنَهم لا يتذكرون الناموس ولا الأنبياء ولا الرب المتأنس نفسه لرحض إثم الخطيئة بل يستعبدون ويفتخرون بِها لأنَهم عدموا العقل بالتواني وبعدم مخافة الله فاظلموا وصنعوا الأفعال المضادة . لا تأكل اللحم وتشرب الخمر بلذة لئلا يجعلان عقلك غير موافق لاقتبال المواهب الروحانية ، إن خاطبت أخاً عن الأفكار وعثر لسانك وتجاوز الترتيب وانحلت النفس من الأفكار فأحذر من أجل غايتك أن تستر ما تلام عليه وتستعمل كلام المائق والمزاح فيوبخك الغريب فإنك بِهذه الأشياء لا تنفع ذاك وتدفع إلي شيطان مارد بل الأليق أن تستعمل الصمت والصلاة فتحل عليك نعمة الروح القدس فيهرب انذهال معقولاتك .

إن ائتمنت علي مبتدئ فلا تنحدر كثيراً في التراثي له فوق ما تطالب به من الباري لئلا يضجر من نير المسيح الصالح وتنجذب معه لأن المركب إذا سقط لا ينبغي أن يتهاون أحد بالزورق ، فلتكن أعمالك بمعرفة الرب فلا يبغتك المحال لأن له عادة أن يعمل الشر بالخير .

إن استشفعت رئيساً من أجل أخ قد خرج من الدير فلا تقتسر الأب من أجله بل ذكره معتنقاً مشيئة الله لئلا بدخوله يصنع بسوء تمييزه أضراراً بالرفقة المتواخية لأن شرارة النار إذا سقطت في البيدر تتلف كافة تعب السنة لأنه يجب علي كل واحد أن يتحمل قريبه من أجل ثواب الله .

والويل لمن يتحمل ولا يفهم ، إن الجالس في البرية يستريح من ثلاثة قتالات : من النظر ، والسمع، والكلام . ومن يسكت في مجمع أخوه يستريح من ثلاثة قتالات : من البيع ، والشراء ، ومن سرقة اللصوص . فيحتاج فيما بعد أن يحفظ ضميره .

إن خاطبت شاباً ذا قامة مزهرة بحسن اللون فأحفظ ناظرك لئلا تكدر الشهوة عقلك فتبتدئ أن تنشئ أقوالاً مملوءة ألماً فتوجد تخاطبه بأطراف شفتيك عن العفة وبجملتك تفسق ، لكن إذا أتفق لك

---

[1] كتاب: مقالات مار إفرآم ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع
وقف على طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس في برية الأنبا مقاريوس
طبع سنة ١٨٩٢

مثل هذا الحديث فأقطع الكلام باختصار متخذاً الصمت ، لأن الكتاب قال خدعته الأقوال الكثيرة فإذا حصلت في مثل هذه الأحاديث التي تضر بالنفس فقصر الفحص عنها مجتهداً .

أحذر أن تطغيك الخطيئة بالحديث الكثير المتصل فتجعلك أن تعمل شيئاً من الأشياء التي لا تشفى، بمقدار ما يقطع أحد مشيئته ويتواضع ينجح ، وبقدر ما يكون مصراً علي إقامة مشيئته بقدر ذلك يسبب لذاته سباً وخسراناً ، لا تشأ أن تتعبد لمشيئتك بل كن مطيعاً لمشيئة الله .

لا تطرح الخضوع الذي بالمسيح فإن ثمرته صادقة محفوظة ، إن تعرقل أحد النساك بتجربة ماقت الخير فلا تبغضه لأن الرب لا يتركه في الطغيان بل يمنحه يده للتقويم لأنه لا يبعد المحبة ، وكذلك من يظن أنه واقف وأبتدأ يتشامخ متعظماً باغضاً فلا يكون في صيانة لأن ظُلْمَت المقت أعمت عينيه ولا يدري أين يمضي .

إن وقفت في بيت الرب لتخدمه خدمة روحانية فكن نشيطاً في الترنيم فإنك إن سكت وصمت أنا وسكت القريب فبالضرورة يبطل التسبيح لكن لا تكن هكذا لأن الذين يمدحون رئيساً أو ملكاً إذا وقفوا في المشهد وأبصروا بينهم إنساناً واقفاً لا يهتف معهم بصوت رفيع يدفعونه ويخرجونه مبينين أنه لا يستحق ذلك الموقف ، فسبيلنا آلا نجعل الابتهالات برخاوة وونية .

الويل للظالم والويل لمن يخجل والويل للمتنعم والويل للمتكبر فإن التجربة توضح إذا أخذتَهم ضيقة الجحيم وشدة الموت أن ليس شئ أعظم من مخافة الله ، حب رفقةٍ جيدةٍ وأبتعد من العصابة الرديئة ، بما أنه ليس الساحر ولا اللص ولا نباش القبور كذلك ولدوا بل تعلموا من الناس المسودي الذهن من قبل الشيطان لأن الله صنع كافة البرايا حسنة جداً ، لا تطربك الحمامات ومجلس الشرب وتوزيع اللحوم لئلا تسقط في معاطب لا تغلب فتخطئ في الأمور العظيمة ، أقتنِ سيرة ذات فضيلة مع أمانة مستقيمة لأن مَنْ مِنْ الناس لا يطوب الإنسان المقتني هذه .

إذا خرجت من القلاية إلى خدمة أو إلى مفاوضة قوم فصن نظرك وأزجر قلبك بالفكر المتدين حسناً قائلاً : ألعلك خرجت تتعلم أن تكون مصوراً حتى تتجر وتتصور صور الناس ، أصغِ إلي ذاتك أيها المتواني جداً كيف يمكنك وذهنك ملطخ في الجسدانيات أن تعاين ماذا ترى مما تتصور وتتنعم به وتبتهج بذكر الله الدائم ، كف مفتشاً المساوئ الأجنبية لئلا ينفسد بواجب فكرك المتعبد ، أتخذ الصمت فإنه يريحك من أدناس كثيرة تذكر دائماً ضغطة الخطاة خائفاً لئلا تحسب منهم بعد مدة غير طويلة .

أما دخلت قط إلي بيت نوح ولما أبصرت النحيب والندب لماذا قفزت خارجاً من البيت فمن الأشياء الوقتية يجب أن نقايس الأبدية لأنه قال : أعطِ الحكيم سبباً فيكون أوفر حكمة ، إن خطر لك فكر يأمرك أن تنتقل من المكان وجاء إليك قوم بسبب الاشفاق والتأسف فساعد أحدهما قيام هواك قائلاً : أن عذرك في الحزن واضح فلا تقبل مشورته بلا تمييز فإن بدأ الآخر يقول لك خطاباً لطيفاً ويعزيك فهذا مقبول أكثر من الأول لأن مثل هؤلاء يهتمون بخلاص الأخوة ويشفقون عليهم .

أما عن الأفكار الناتجة من الاغتمام ولاسيما أفكار الساكنين بتفرد فأظنها لا تخبأ عن الكثيرين كي أروم أن أبرهن عنها ، متى ما حصلت في النفس آلام من قبل المحسوسات يصير العقل مبتعداً من تلك المعاينة النفيسة مارقاً ومبتعداً عن الإنتظار والدراسة في الخيرات العتيدة وتتلاعب به المحسوسات طالباً لذتَها خادماً الجسد والرذيلة ويردد مثل هذه الأفكار في ذاته قائلاً : ويلي ماذا أصنع أنا الشقي ، ضعفي كثير ، والمسكنة والنقص والضعف تشتملني ، لا يمكنني أن أعمل ، وأستحي أن أطلب صدقة ، وقد صرت غريباً من أمتعة والدي ، كنت مقتدراً علي الرخاء فسقطت في الضر والشقاء ، صرت عاراً للذين يغبطونني الآن ، والحزن قد أحتوى علي قلبي من أجل المصاب الذي اشتملني ، وليس لي مؤازر ولا من يرثي ، صرت في هوان كثير .

فلان قد قدم إلي الكهنوت وفلان قد أقيم رئيساً وأنا خامل ووضيع ومطروح وليس من يعضدني ويباشر أحوالي إن وقعت في مسكنة ومرض ، فلان قد تكاثرت ثروته ، وفلان يخدمه تلاميذه

ويزفونه فمن هنا يعاشر الذين في الجلالة والشرف وأنا قد حصلت في وضاعة كثيرة يعوزني قوت يومي ، أولئك يتقدمون لابسين لباساً بَهياً وأنا يعوزني الأغطية التي لا بد منها ، أولئك إذا أكملوا أيامهم في الخيرات يخرجون من العمر وحينئذ يحنطون بطيوب فاخرة ويوضعون في قبور مبيضة وقد صنعوا لهم اسماً مؤبداً وها العنوان المكتوب علي قبورهم والمرثية المكتوبة لهم وأنا إذا توفيت لعلي ولا أؤهل لقبر بل قلايتي تكون لي قبراً .

أعدم من يتعاهدني فقلبي يوجعني فماذا أعمل ؟ عيناي قد أظلمتا من نظرهما إلي الباب وليس يوجد من يقرع ، أنا حزين وليس من يعزي ، أنا في نَهاية الاغتمام وليس من يترثى ، ويلي فقد فنيت في الوجع أيامي .

إذا درس العقل بمثل هذه فقل لنفسك أيها الإنسان إلي متى يا نفسي أنتِ مغمومة ، إلي متى تقلقين، توكلي علي الرب فتقصين الأفكار الصعبة ، فإنك لو لم تتحد بالأرضيات وتتمناها ما كنت تعلقت بِهذه الشباك ، لكن أعرف هذا مستيقناً أن كل إنسان إذا كان في رفعة وجلالة وإن كان في مذلة وضعة ويستسير برأي الله فليس مطروحاً ولا مرذولاً .

من يستعجب من الحظوظ الوقتية ويتطلب التمتع بِها فقد أعدم نفسه عزاء الصديقين وإن أجتهد أن ينال ذلك السرور فلا يمنح مدخلاً للأفكار الصعبة فإنْها تمرق على الله لأن القائل صادق : من وجد نفسه فسيهلكها ومن أهلك نفسه من أجلي يجدها ، فلذلك يقول الرسول : إنكم قد متم وحياتكم قد خبئت مع المسيح في الله فإذا ظهر المسيح حياتكم فحينئذ ستظهرون أنتم بمجد .

فلِمَ تستعجب من الوقتيات وتغبط ما يسرع بمنزلة المد الجاري ، وماذا تنفع المقابر البهية والقبر المصقول بياضة والمدائح الباطلة الرجل العائش بالنفاق الذي لا ينال راحة ولا نياحاً ، بماذا ينتفع الموضوع في الموضع المذهب سقفه الجميل الحيطان إذا حصل معذباً من الآلام ، وإذا نَهشه الثعبان باطناً وأكل جسده ، لأن ماذا ينفع النفس المفارقة الجسد إن لم يكن لها المدحة من الرب في الكنيسة العظمى .

فلا تستعجب إذاً من الوقتيات المنسكبة نظير الشمع المذاب ، لكن أولئك يعاشرون الأغنياء وأنت تخاطب الإله ملك الكل بالصلاة وتأكل جسم ابنه الوحيد الجنس وتشرب دمه وتسر ببهجته لأنك قد أهلت أن تصير هيكلاً له فلا تسأم إذ ترى نفسك في العمر الذي هنا في وضاعة وذلة وفي شيخوخة عميقة ومسكنة ، فإن الغازي طير السماء لا يتركك غير مهتم بك ، لكن يضيق عليك حذراً أن يؤذيك كلول البصر .

أخطر بذهنك أن هذا الأمر قد أحتمله الصديقون ، فمن هنا اسحق حين أعطى البركة ليعقوب قال : أدنِ مني حتى أفتشك يا ولدي إن كنت أنت هو ابني عيسو ، أما ناظر ذهنهم فكان يتلألأ نقياً من الرذيلة ، فتنظف أنت من الرذيلة ولا يكن لك هم بالمرض الجسداني لأن الرب يهتم بنا ، وإن كنت محتاجاً من الحوائج التي لابد منها أفتكر أن هيرودس كان ذا ثروة ونعيم ويوحنا السابق كان مقيداً في الحبس كواحد من صانعي الشر والناس الحقيرين ، لأن القائل غير كاذب أنه سيكون لكم حزن في العالم ، والعالم يسر وأنتم تغتمون لكن حزنكم سيؤول إلي فرح ، وإن كنت تقول : أنني كملت العمر بضيقة وضغطة خاملاً ووضيعاً وبعد الموت لا لي من يكمل تذكاري إن هذه غاية من الغباوة وأمراض نفس وامقة التشرف ، كم تظن مقدار الذين جاهدوا في الاضطهادات عن الإله مخلصنا والآن لا يعرفهم العالم فهل الذين توفوا في الجبال والمغاير وثقوب الأرض الذين لا يصنع الناس تذكاراتَهم أتراهم هلكوا ! لا ألبتة ، لأن كافة البرايا مكتوبة في كتاب ، فأعقل إذاً الأمور التي فوقاً لا التي علي الأرض ، لأن تصرف الصديقين في السماء .

لا تَهرب من الأتعاب لأننا نحن الذين أمتحنا بالأتعاب والضيقات والشدائد سنطرب بالرب ، إن شئت أن تصير وارثاً مع القديسين فلا ترفض التواضع ولا تَهرب من الشقاء والأتعاب بل أثبت لتنال

الحياة التي لا تنحل والعزاء الدائم والمجد الباقي إذ الرسول يقول : إن آلام هذا الدهر لا تعادل المجد العتيد أن يستعلن فينا .

إن أثرت أن لا تسترق في شئ من قبل المضاد فصدق مؤقتاً أن ليس شئ مما تعمله أو تفتكر فيه ينكتم ، وإن أرتاب فكرك من أجل معرفة الله فليكن لك تمثالاً اليشع النبي لأنه حين أضطرم الحرب بين ملك إسرائيل وملك السريان أرتأى ملك السريان رأياً لدى غلمانه قائلاً : في الموضع الفلاني نعسكر ، فأرسل اليشع إلي ملك إسرائيل قائلاً : أحذر أن تعبر في هذا المكان فإن السريان هناك مختفون .

فأرسل ملك إسرائيل إلي الموضع الذي قال له اليشع النبي وتحذر منه . فطارت نفس ملك السريان من أجل هذا القول وأستدعى غلمانه وقال لهم: أما تخبروني من هو الذي يسلمني إلى ملك إسرائيل؟ فقال واحد من غلمانه: ليس الأمر هكذا أيها الملك سيدي بل اليشع النبي يخبر ملك إسرائيل بسائر الأقوال التي تقولها في خزانة منزلك . فإن كان نبي لا يخفي عليه شئ مما يصير في السر ، أترى يمكن أن يخفي شئ عن صانع الكل . لا ألبتة لهذا أمرنا أن نصلي في الخزائن إذ ربنا ومخلصنا يسوع المسيح يقول : فأنت إذا صليت فأدخل إلي خزانتك وأغلق بابك وأبتهل إلي أبيك الذي في السر وأبوك الذي يرى السر يجازيك في الجهر .

فلنطرح إذا عنا كل فكر رذيلة لئلا نسقط فإن الجحيم عريان قدامه والهلاك لا لباس له يستره ، فلا نكتئب ونتقسم فإنا قدام عيني الله إن شئنا وإن لم نشأ ، أفرح بالغموم فإن الأكاليل من أزهار مختلفة تضفر والصديقون بأحزان كثيرة يدخلون إلي فرح ربِهم .

لا تؤثر أن ترأس نفوساً لئلا تكون ما حصلت في مقادير النظام فتضر نفسك والذين يتبعونك ، وإن اجتذبت لا مختاراً فأهتم اهتماماً لا بأن تعمل مشيئاتك بل مشيئات الذي أئتمنك علي الاهتمام بغنمه الناطقة ، فإنه يقول بالنبي حزقيال : أترى الرعاة يرعون أنفسهم أو ليس الرعاة يرعون الغنم فها قد أكلتم اللبن ولبستم الصوف وذبحتم أسمنها وغنمي ما رعيتموها ، والضعيف ما قويتموه ، والمريض ما أويتموه ، والمتهشم ما جبرتموه ، والضائع ما طلبتموه ، والقوي صنعتم له تعباً ، فتشتتت غنمي من أجل عدم الرعاة وصارت مأكلاً لكافة وحوش الغابة ، وتبددت غنمي على الجبال وعلي كل رابية عالية ، وتفرقت علي وجه كافة الأرض وليس من يطلبها ولا من يردها . فلهذا أيها الرعاة أسمعوا قول الرب : حي هو أنا يقول الرب عوض ما صارت غنمي مرعى وفريسة وصارت الغنم مأكلاً لسائر وحوش الغابة من أجل اقفار الرعاة ، ولم تطلب الرعاة غنمي ، ورعى الرعاة أنفسهم ولم يرعوا غنمي بدل هذا أسمعوا أيها الرعاة قول الرب هذه الأقوال يقولها الرب هاأنذا علي هؤلاء الرعاة ولأطلبن غنمي من أيديهم ولأصرفنهم من أرتعاء غنمي ولا يرعاهم هؤلاء الرعاة أيضاً وأنقذ غنمي من فمهم ولا تكون لهم أيضاً مأكلاً ، فيجب أن نفهم علي السياق أي عطب لمن لا يهتم بالمتهاونين ، لأن الرئيس يحتاج أن يكون خبيراً بالصناعة جداً ومنتهضاً إلي خلاص المرؤسين ويتأمل خطوات كل واحد وحركته ولباسه ويوبخ الأشياء الغير لائقة ويقتادهم إلي الأشياء الفاضلة .

لأن المعلمين لا يعرفون الطلبة صور الحروف وتسطيرها فقط بل يوضحون لهم أيضاً النقط والشكل هكذا يجب علي المتقدم أن يفيد الأخوة ويوضح لهم حتى أصغر الأشياء التي تمدهم إلي الخلاص بل وينبغي له أن يقول للمتوانين العذابات التي تتوعدهم لتصير صوراً تمنع العلة ممن لا علة له كذلك الذئاب إذا عاينت اهتمام الرعاة تَهرب من قطيع الغنم الناطقة .

وليس شئ يعلي النفس إلي الخلاص ويينع شبابِها للأتعاب مثل ما تجد معلماً كارزاً للفضيلة بعلمه كما يعلم القائل : أبصروا إليَّ وهكذا أعملوا .

ونحتاج نحن المتتلمذين أن لا نكون معاندين ولا مجاوبين بل موضحين كل تواضع عقل قدام الله والناس . فإن سمح للمؤدب أن يكرز بالفضيلة بكلامه ويتوانى عن عملها فلا نمنح للمتنصب بإذائنا من هذا السبب فسحة أن يعكس نفسنا ويردها ، لكن فلنذكر القائل : علي منبر موسى قد جلس الكتبة

والمعتزلة فكل ما يقولون لكم أن تعملوا أعملوا ، أما نظير أعمالهم فلا تعملوا فإنَهم يقولون ولا يعملون .

أحفظ ذاتك دائماً ألا تضع عثرة أو شكاً لقريبك حذراً من تَهويل القائل بالنبي : الويل لمن يسقي قريبة ممزوجاً كدراً . وأيضاً هذه يقولها الرب ربنا : هاأنذا أحكم بين النعجة والنعجة ، والكبش والتيس ، أو ما يكفيكم إنكم رعيتم المرعى الجيد وبقايا المرعى وطئتموها وشربتم الماء الصافي وكدرتم باقي شربكم ، وارتعت غنمي الأشياء التي وطئتموها بأقدامكم ، وشربتم المتكدر من تحت أرجلكم ، فلهذا يقول الرب ربنا هاأنذا أحكم بين النعجة القوية والنعجة الضعيفة لأنكم طرحتموها من أجنابكم ومناكبكم ، وبقرونكم نطحتم كل من فنيت قوته منها ، فأستخلص غنمي ولا تكون للأرتعاء وأحكم بين الكبش والكبش . فلا نكونن وامقين ذاتنا لأن محبة الذات تينع الرذائل كأنَها فروع والمحبة هي هادمة محبة الذات المحبة تجذب الكل إلى الألفة والانتظام ، المحبة قنية جسيمة وكريمة ، فأجتهد أن لا تسقط منها .

فلنهتم منذ الآن بخلاصنا ولنشفق علي أعضائنا ولننصب رسوماً للفضيلة لقريبنا بالمحبة بالأمانة بالصبر بالطهارة بالخضوع بتواضع العقل بتقوى اللـه غير منقادين لمشيئاتنا الرديئة فلنجاهد بأتعاب الروح وأوجاعها لأن التنعم والراحة يعاندان السيرة الفاضلة سالكين الطريقة الضيقة المحزنة ، مؤثرين انسحاق القلب ليثبت لنا ذكر الموت ونعتق من الانتقام لأنه قيل : ويل للضاحكين فإنَهم سيبكون وينوحون ، ومغبوطون الذين ينوحون الآن فإنَهم سيعزون .

فلنتطلع في القبر ولنعاين أسرار طبيعتنا فنرى كومة العظام التي لبعضنا بعض وجماجم الأجسام مجردة وباقي العظام ، فإذا أبصرنا تلك فلنبصر ذاتنا في أولئك أين جمال الزهر الحاضر وحسن لون الخدود ؟ فإذا تذكرنا هذه فلنكفف مرتعدين عن الشهوات الجسدانية لئلا نستخزى في القيامة .

أذكر ضعفي في صلواتك ولا تضجع في ذاتك لكي الرب الإله يذكرني أنا الدودة والنتانة وينجيني من التعاذيب المعدة للخطاة ، ويؤهلني لنعيم الفردوس لأن خيراته وصلاحه ورأفاته علي كافة براياه.

حدث أخ بما سمع من أخ آخر أن أخاً كان في مدينة ما وكان له أجير يعمل معه قد وثق به علي كل سر فخطر له فكر أن يمضي إلي دير ويتخذ سيرة العبادة فمنعه مريداً أن يقطع غرضه بما أنه كان بليغ المعرفة بكافة أموره فلم يمكنه أن يمسكه فلما زهد الشاب في العالم خرج إلى أخوة وبعد سنين كثيرة بدأ يقاتل بالعودة إلي العالم فترك قلايته ومضى إلى مستأجره كأنه جاء ليتعاهده ، فقبل الرجل الأخ ببشاشة دفعة ودفعتين وفي انحدار الأخ مرة ثالثة تظاهر له الرياء وأظهر للرجل ألمه المكتوم قائلاً : حيث أنني لا أستطيع أن أحمل سيرة العبادة أتضرع إليك يا سيدي أن تقبلني عندك وأكون لك كحالتي الأولى ، فأني أرجو أن أباشر أمورك وأخدمك أكثر مما كنت لأنني كنت سمعت إنك عازم أن تعطيني ابنتك امرأة . فأجابه الرجل : إن كنت ما حفظت للـه ضميرك فكيف تحفظه لي. فانجرح الأخ من هذه الكلمة كمن ينجرح من السياط وعاد إلى قلايته.

فمنذ الآن لا نضجر محتملين الأوجاع والأتعاب لأنه قد كتب : إن الذين يزرعون بالدموع يحصدون بالسرور . لتكن لك سذاجة سليمة لإقتنائك وصايا اللـه ، ومكر لمعاندة حيل العدو المعاند ودحضها ، أقطع بحكمة الأحاديث الضارة ليسكن الإنسان الباطن حسناً ، لا تكن غاشاً ومتمرد النية لئلا تتعرقل .

إذا ظننت إنك أستندت وتوطدت أحذف الغيظ لئلا تسكر بغير خمر من الرذيلة متثقلاً بالحقد لا تكن محباً للذة متهاوناً لئلا يفترى علي الرب بك ، لا تمشي مع ذوي الأقوال المنمقة لئلا تنفسد رؤياتك فإن ألفاظهم ضارة جداً لأنَهم يجعلون الشيوخ يضلون والشباب يجتذبونَهم إلى افتعال الإثم ، أرجع عن مشورات الناس الأردياء لأنَهم قد أوقفوا ذاتَهم عبيداً للبطن وللآلام التي تحت البطن ، لا يمكن الزاني أن يحب الرافض الألم ، ولا السارق يُحب من يطرح الظلم بل الإنسان إنما يلتصق بمن يشابِهه . لا تحل لك اللذة لئلا يمرمرك تعذيبها ، أنتظر كل ساعة الرحيل وأستعد لهذا السفر فإنه

ستكون ساعة لم تنتظرها ، والويل حينئذ لمن لم يستعد ، إن التخشع لجليل لأنه يشفي نفوس الناس لأن من يبكِ لا يخطئ قط ، ولا أحد في التخشع فيفتكر في الشر لأنه من التخشع يجيئ البكاء ، ومن البكاء تنقبض الشرور وتبتعد .

أطلب بأي شئ تنغلب الآلام ولا تفتش ما هي الفضيلة الزائدة فإن هذا الأمر يوافق صناعتك لأنه يحطم اللذات ، فتقدم في الترتيب أولاً أن تصلي بمداومة وبتيقظ ثم أن تصون عقلك وتكبح ذهنك حتى لا تورد كلمة لا ترتيب لها وبعد ذلك الحاجة واجبة أن تصلي في العقل وتنتظر الدينونة التي تبيد النوع وتذبل الشهوة وتكون بذلك النفس في طيبة وسرور .

المسك في أي موضع يحصل يقاوم صغر النفس لأن الآلام لا تسكن بالانتقال والانفصال بل بإصغاء العقل إلى ذاته فالحاجة بنا ماسة إلى الصبر لكي ما إذا صنعنا مشيئة الله ننال المواعيد ، أما من ينقاد للضجر فيقف بعيداً من الصبر بمقدار ابتعاد السقم من العافية ، فليست الفضيلة في الضجر بل إنما تعرف في الصبر وبالصبر تينع وتتأيد سيما إذا أشتغل العقل بمعاينة ودراسة الخيرات المأمولة لأنه من هناك يتدسم العقل ويتخذ قوة من الأطعمة فإذا خاب العقل من هذه النعمة والرتبة يصبح بالحقيقة مسكيناً وضعيفاً مريضاً ، فإذا نقضت منذ الآن الترثي والتوجع للآلام الهيولانية فأشغل عقلك بتلك الصناعة الإلهية فلا تحتاج أن تنقل الجسم من مكان إلي مكان وتتعب في الأسفار بغير حجة واضحة لأن ملكوت السموات فينا باطناً .

أحفظ ذاتك حيث حضرت وسكنت لا متثقلاً وبلا لوم لتنجح بتأيد الرب حسناً ، أما إن برزت متهاوناً فترقب ألا ينسكب عليك الاستحقار ممن هو أعظم منك قدراً بما أنك صرت رئيس أفعال لا بر فيها فإن تناهي الكمال هو أن يفرح الإنسان ويبتهج بنجاح قريبة .

وللنية المرة الخبيثة عادة أن تحزن وتستصعب حسن نجابة رفيقها . لِمَ تتثقل أيها الإنسان بتشريف النجيب هل بسقوط هذا أو ذاك من الخلاص تخلص أم أغلقت ملكوت السموات دون كثيرين ، أتملك وحدك ، أم لا يسع سواك ملكوت السموات ، أم لك وحدك أعد سرور الفردوس إذ تستثقل خلاص الكثيرين .

لا تستبدل أفعال العشق الصالح وأعمال السيرة الجليلة بالفظاظة وبرداوة العادة المرة ، لا يطغك أحداً لا إنسان ولا شيطان ولا فكر معشش في ذهن العقل لأنه من الأمور الغير ممكنة أن تحسب فضيلة وهي غير ممزوجة بالمحبة ، فلو أتفق أن يملك أحدكم سائر العلم الأمر الغير متيسر وكافة الأمانة حتى ينقل الجبال علي حسب قول الرسول ولا تكون فيه محبة فلا ينتفع شيئاً بل هو واقف بعيداً من السبيل المستقيم المؤدي إلي الأبواب السمائية .

فنحتاج منذ الآن إلى دموع جزيلة لنتحرز من القيود من البغض من الحسد والكبرياء وكل دنس لأن النية الشيطانية تحسد الناجحين وسعادتَهم لأن الشياطين المحتضني البغض مأمورون أن يهلكوا الكل معاً ، أما القديسون المضاهوا سيدهم يؤثرون أن يخلصوا سائر الناس ويقبلوا إلى معرفة الله الحق لأنَهم لما تتوجوا بالمحبة أحبوا القريب كما كانوا يحبون أنفسهم .

إن كنت عفيفاً فلا تتشامخ بمسك بل تضرع إلى الله بتواضع عقل أن يوقيك إلى النهاية لأنه ربما تتقاطر ذوات الأربع إلى كرم عقلك فتفسد ثمره بغتة من قبل ونية الناطور ، إن كان لك ثروة فلا ترتأي أراء عظيمة كأنك استرحت من المعاطب والاغتيالات فمن هنا أن التمتع الوقتي غير حقيقي لأن انتقاله سريع كما كتب رأيت عبيداً علي الخيول ورؤساء يمشون علي الأرض كالعبيد . إن كنت حسناً وأعضاؤك نضرة فلا تترفع بقوة الجسم بل كرر التفكر بكم هو مقدار المعاطب المنصوبة للجسد لأن الذين تعاينهم مضبوطون من الآلام التي لا تشفي إن كانت أعضاؤهم مكسورة أو متأذين من الأرواح النجسة ليسوا هكذا ولدوا من بطون أمهاتَهم بل أكثرهم على غفلة حسبوا من ذوي هذه الأمراض .

والقامة التي كانت بالأمس زاهرة حصلت اليوم ضامرة معذبة من الأسقام الصعب شفائها . فترقب إذاً ذاتك حذراً أن تحسب في جملة ذوي هذه الأسقام بعد مدة غير طويلة بما أنك موجود في هذه الطبيعة فمتي ما أبصرنا في غريب شيئاً من المحزنات فلنتصور ذاتنا ولنعاينها في ذاك لأننا لا نعلم ماذا ينتج اليوم المقبل لأن جسدنا مملوء حزناً كثيراً وأوجاعاً جزيلة .

وإذا عرفنا ضعف طبيعتنا فلا نكونن متكبرين ولا غير مترتبين بل يتوجع بعضنا لبعض ليسعفنا الباري السريع التعطف المقتدر أن يجعل الواحد متوجعاً ويشفيه ، ويحدر إلي الجحيم ويصعد ، ولئن كان جسمنا إلى مدة يسيرة صحيحاً معافى لكننا لا نعلم ماذا ينتج اليوم المقبل .

لا تترفع علي الخاطئ ، ولا تحرض من لم يخطئ إلى الخطأ فإن الأمرين كلاهما غير متفقين ومعطبين فإن شئت أن تجعل نفسك نجيباً نافعاً فأمنح ذاتك من كل واحد من الأمرين رسم أعمال حسنة وأسكب الدموع قدام الرب لينهض الرب نفسك لأنه لا يهمل الواقف أن يقتنص من الخطيئة وهو القاضي المقتدر أن يخلص ويهلك .

لا تزعج مجمع الرجال النساك إذا وقفوا يبتهلون إلى الرب لئلا توافيك الضربة المسيرة من الله لأن الخطأ إلى الله أمر صعب لا عفو له ، أرواح الأنبياء تخضع للأنبياء لأن الله ليس هو إله الشغب والتبلبل بل إله السلامة . ألتزم الصمت وعدم الكسل فإن عدم العجز يحفظك غير مثقل والصمت يحفظ نور نفسك غير منطفئ ولا يسمح للرذيلة أن تظلمك وتسود عليك فليحضر معك تواضع العقل في كافة الأوقات وفي سائر الأفعال التي تعملها الآن ، كما أن الجسم يحتاج ثوباً ولو كان الوقت دافئاً سخناً وإن كان بارداً متجمداً ، كذلك النفس تحتاج بلا نقص ولا مباينة إلى حلة تواضع العقل ، إن تواضع العقل قنية نفيسة مخصوصة وقد عرف ذلك كافة الذين حملوا نيره بلا خجل .

أختر أن تمشي عارياً حافياً أكثر من أن تتعرى منه فإن الذين يحبون التواضع يسترهم الرب ، كما أنه غير ممكن أن تقيم النواتية في المركب دائماً ، ومن نزل في فندق أن لا يخرج من ذلك الموضع ، هكذا نحن لا يمكننا أن نستمر في هذا العالم ، وكما أن العالم يسمي هناك الإنسان مسافراً وراكباً كذلك نسمي هنا سكاناً وضيوفاً .

فلنتأمل هذه بناظر الذهن ونستعد للانتقال من العالم . إذا شاهدت ذاتك مكللاً بالفضائل ومتشاهقاً فيها فحينئذ تحتاج إلى تواضع العقل لتجعل أساس المناقب كاملاً سالماً ويثبت البناء المبني لا متزعزعاً ولا منشقاً ويحصل ثمرك في صيانة جزيلة ، من يحفر حفرة لقريبه يسقط فيها ومن ينصب فخاً لمعلمة فذاك ردئ الديانة ومضاد الناموس ، فلذلك يكون مداناً مع الذي سلم المحسن والمعلم إلى أيدي الأعداء .

إن الرجل العلماني ليس هو بالصنعة والأغتذاء بل هو الخلق الردئ المائل إلى الشهوات الرديئة والهيولانية لأن النفس بِهذه السجايا تنعكس فتصير دنسة ، العابد لا يحق له قص الشعر واللباس بل الشوق السماوي والسيرة الإلهية لأنه بِهذه المناقب تظهر السيرة الفاضلة قبل المحنة ، لا تعظم شأن نفسك لأنه ربما توافي محنة فتوبخ من الظانين أنك واقف وعلى حسب ظني إنك قبل المحنة لا تعرف نفسك كيف أنت فتحتاج أن تصون الذهن وتسهر ، كما أن النار في الكور تختبر الذهب والفضة هكذا في المحن تبتلي نفوس البشر فإذ لنا الرب معين فلا نجزع في المحن بل فلنعد ذاتنا إلى رأي الدعوة العليا بتأييد المسيح لأن الرب يكلل سائر الذين يحبونه .

إن سترت أعضاءك لئلا يبصرها أحد مكشوفة فتحفظ أنت أن تبصر عرية أحد مكشوفة خلواً من ضرورة المرض لئلا يرتسم في ذهنك رسوم ما غير لائقة ، إن أكملت خدمة ودهنت السقيم بزيت فأحفظ ناظرك ويديك ولسانك لئلا تطفر خارج حدود العفة فإن هذا الأليق بالتدبير المستحسن .

ضع يدك علي أعضاء قريبك برفق ورعب كمن يلمس الأشياء القدسية نفسها ، لأنه بالحقيقة أن هيكل الرب قدوس عجيب في العدل فقد قال : ألا تعلمون أن هيكل الله أنتم وروح الله يسكن فيكم فمن يفسد هيكل الله فسيفسده الله لأن هيكل الله قدوس وهو أنتم .

فإذا تيقنا هذا علماً فلنحفظ قلبنا بكل احتراس ، احفظ ذاتك ألا تكون لك معاملة أو تصرف مع صبي لأن كثيرين انفسدوا ورفضوا وعُطلوا أخيراً. إذا نمت فلا تفرش لذاتك فراشاً فوق الحاجة فإن الرخاوة تستطيع أن تحمي الجسم كثيراً وتضرم شهوة اللذة اضراماً شديداً جداً فإن الذين ينامون تحت السقوف المذهبة وعلي الأسرة العاجية المرصعة بالجواهر يطوبون الذين أشرقوا بأوجاع النسك والأتعاب وإن كانوا لا يطيقون أن يباروهم .

أعمل كل شئ وأفتكر دائماً في ما ترضي الله فإن هذا المعقول إن أبتعد منك فقد ذهب ثواب كافة الصناعة ، أحتمل الأتعاب في هذا الوقت اليسير لتتنيح إلى أبد الدهور فإنك إلى هناك تذهب وعملك يبقى ، إن كنت فاعلاً فلا تصر حزيناً من ذلك السفر النفيس فإنه لا يحزن أحد يسافر إلى أهله بثروة وضياء لا تجرب قريبك من أجل محبة الفضة لئلا تأخذ من أجله خطيئة لكن أخطر ببالك المكتوب : لا تكونوا عند أنفسكم عقلاء فإن الظُلاَّم لا يرثون ملك الله . لا تكن يدك ممدودة إلى الأخذ بل الأولى أن تكون مبسوطة إلي العطاء ، كن طويل الأناة لتكون جزيل الفضل في العقل فإن طول الأناة قربان نفيس ، وأطرد احتداد الغضب والشر وصغر النفس فتصنع في نفسك سجية سلامية .

إن كنت أقبلت من جندية الشرف الوقتي المتساقط كزهر الحشيش وزهدت في خيالة أحتمل الأتعاب إلى الغاية لئلا يفترى على الله من أجلك كما قال الرب : هكذا فليشرق نوركم قدام الناس حتى يبصروا أعمالكم الحسنة فيمجدوا أباكم الذي في السموات . ومع هذا فإن المدونين في جندية ملك أرضي إن لم يوضحوا نجابة ودربة بإزاء أعداء الملك يلبثون غير واصلين إلى المواهب الجسيمة ، فإذا عملوا كل شروط الشجاعة واختبروا فإنما ذلك أمورهم لأنَها للسبح الباطل وللذات البطن ، فأما الذين يتشجعون ويستظهرون على أرواح الخبث فيصيرون محصين في الجندية السمائية ، ولا يكون لسرورهم نِهاية لأنَهم يكونون في السماء كالملائكة .

إن جلست في كنونيون أو سكنت مع ذاتك فلا تتوانى في المناقب المطلوبة التي هي قلب نقي وروح منسحق فإن من يقتني هاتين الخلتين لا يرفضه الله ومن يحتقرهما عطبه عظيم ، لا تتعظم بدراية اللسان وتشمخ بذاتك لكن علم تعليماً فعلياً بالتعليم للأميين والذين لا يعرفون الكتاب لتكون تلميذاً لرسل الرب لأن الافتخار بالحكمة البرانية قد منع عنه المسيحيون خاصة أما المفتخر فليفتخر بالرب .

لا تفتخر بلباس الثياب متذكراً خملة إيليا ومسح إشعياء النبي كما كتب أذهب فأنزع المسح عن حقويك وحل نعليك من رجليك . ولا تنس لباس الصابغ ، لا تكن متشرفاً بالحلة البهية بل بالأعمال الصالحة فليشرق نوركم قدام الكل لمجد الرب ، إذا تكلمت عن الأمانة فترقب إن كنت قد عملت أعمال الأمانة فإن كنت مؤثراً أن تتكلم وتسمع فسيقال لك المكتوب : أيها الإنسان الخاوي أتشاء أن تعلم إن إيمانك خلواً من الأعمال مائت ، بالحقيقة أن كافة المعترفين أنَهم يعرفون الله وبالأعمال يجحدونه هم موتى علي قول الرسول : هم مرفوضون وغير خاضعين ولا دربة لهم في كل عمل صالح .

فليكن لك عقلاً متواضعاً لئلا تستعلي إلى العلا فتتهشم بسقطة مذهلة ، أتضرع إلى الله في كل ساعة هاتفاً إليه قائلاً : يارب ضع على فمي حافظاً وباباً حصيناً يحوط بشفتي لئلا يجنح قلبي إلى أقوال الخبيث فأحتج بحجج الخطايا مع الناس العاملي الإثم لأن اللسان هو عضو صغير يتعظم كثيراً، إن نَهب الأمتعة والعقوبات وتَهويل الموت قد زعزع كثيرين وآخرون كللوا بِهذه الأشياء وآخرون من أجل محبة الفضة صاروا دافعين وقوم من أجل السبح الباطل صاروا يتهاونون بالصدق وآخرون

من أجل هياج محبة اللذة سقطوا في الإثم وأولئك قد غلبوا من له اقتدار الموت الذي هو المحال وأسكنوا الرب في أنفسهم دائماً لأن ظفرنا بالمسيح .

فإن نجحت في أعمال صالحة فلا ترفع عقلك وإن لمت ذاتك كثيراً فلا تيأس من خلاصك فإن ليس مغبوط المبتدئ حسناً فقط بل الذي قد أكمل العمل بلا عيب . فلا نبذلن ذاتنا للبطالة طول النهار بل فلنعملن عملاً ممدوحاً في الساعة الحادية عشرة لنؤهل أن نَقْتَبل من يمين الرب الدِينَار .

إن اتخذت لك تلميذاً وأبتعد بونيته من الإصغاء بنفسه إلى نير العبادة الحسنة فلا تستغرب هذه الأشياء ولا تمنح للونية فسحة لكي تخشن ذهنك لئلا تضر نفسك ولا تنفع ذاك بل أخطر بذهنك خادم اليشع النبي وإن أقترف رذيلة جزيلة تفكر في من صار من الرسل دافعاً ، فمن هو هكذا هو عديم الحفظ منافق ينسب إلى المعلم علة سقطته ولا ينسبها إلى اختيار نية التلميذ الرديئة لأن الله صنع الإنسان ذا سلطان بذاته فلذلك الكرامة والعذاب قد أعدا . فللمجاهدين حسن الكرامة والأكاليل ، وللمخالفين المتهاونين العذاب والعقاب لأن من يخطئ خطية للموت يكتسب الموت لذاته كما من يثبت في الرذيلة ولا ينتقل من الأمور المحظورة إلى المناقب الفاضلة .

إذا رأيت ذاتك صاداً عن قراءة الأقوال الإلهية ومتهاوناً بالمواعظ الروحانية فأعرف أن نفسك قد سقطت في مرض رديء لأن هذا هو ابتداء سوء التمييز الذي يقتطف منه الخطاة الموت لأن الذين يلمسون صناعة الحديد لا يكرهون الغبار ولا صوت المطارق ولا النار بل يأخذهم شرار الحديد فباهتمامهم وثباتَهم يرفعون منه الأواني الشريفة ، ولا نضجر من أن نعزي بعضنا بعضاً لنحصل الأمر المكرم من شئٍ حقير فنؤهل لتلك التكنية والمجد الفائق الطبيعة لأنه كتب إن انتشلت كريماً من شئ حقير ستكون كفمي ، ومغبوط من له زرع من صهيون وأهل في أورشليم .

أسقِ نفسك من المياه الإلهية لتزهو وتثمر ثمراً بعدل ، فيجب علينا أن نطلب منفعة النفس كما تطلب وحوش البر الحشائش التي توافقها لأن النفس إذا كانت صحيحة معافاة فالجسد يكون ممكناً متأصلاً في الأتعاب الصالحة ، فإذا سقطت من قبل الأفكار القبيحة فمن الضرورة اللازمة أن ينفسد الجسد من تلقاء الرذيلة فلذلك مغبوط من يتجر حسناً في هذا العمر ويقيد الأشياء المختصة بالحياة فإنه سيمضي موسراً إلى الحياة التي لا تبلي التي نرجوا أن ننالها بشفاعة كافة الذين أرضوا الرب إلهنا يسوع المسيح الذي له التمجيد إلى الدهور . آمين